أسلوبية غزل بشار بن برد

أ.م.د. علی أكبر أحمدي أ.م.د. إبراهيم نامداري

قسم اللغة العربية وآدابها/ جامعة بيام نور/ إيران

The style of Bashar Bin Burd

Ass.Prof.Dr. Ali Akbar Ahmadi **Ass.Prof.Dr. Ibrahim Namdari**

enamdari@yahoo.com akbar463@yahoo.com

Department of Arabic Language and Literature\ Bayam Nour University\ Iran

Abstract:

The method is the man who knows every poet and writer to us whether this poet or writer is proficient in any subject of literature, especially if the subject in the spinning, which was issued by blind like Bashar ibn Bord, living in an environment full of singing and music influenced his literary achievement where we see He is the one who pours the flood of his pen in the poetry. He looks at the beautiful artistic photography, the analogy, the diagnosis and the poetic music inside and outside, and his resemblances are weak, repetitive, imitating the old and what he heard from them. As it was established in some subjects has never been the same in the history of Arabic poetry by such as the tail of the yarn by ruling or created letters of poetry, as close to the poetry of the common people became spinning modern markets and make it within the reach of everyone who likes to hear the conversations of girls and tried to Bashar's stylistic features are depicted on the basis of his poetry achievement and what he wrote about to facilitate the research difficulties.

Key word: Spinning, style, Bashar ibn Bord, artistic pictures

الملخص:

الأسلوب هو الرجل وهو الذي يعرف كلّ شاعر وكاتب إلينا سواءً تفنن هذا الشاعر أو ذاك الأديب في أيّ موضوع من موضوعات الأدب وخاصة إذا كان الموضوع في الغزل الذي صُدر عن أعمى مثل بشار بن برد وهو يعيش في بيئة زاخرة بالغناء والموسيقى فأثّر على انجازه الأدبي حيث نراه يشمّر عن ساعديه متقلبا بين أنواع الغزل من الإباحي الصريح والعفيف الطاهر والغزل الماجن مستخدما ذوقه الشعري. وهو الذي يصبّ فيضانات قلمه في كأس القريض ناظرا إلى التصوير الفنيّ الجميل والتشبيه والتشخيص والموسيقى الشعرية داخلية وخارجية، أمّا تشبيهاته فضعيفة تكرارية يقلد فيها القدامى وما سمع منهم لكنّه افتن في بعض موضوعات لم يكن لها مثيل في تأريخ الشعر العربي من قبل مثل ما ذيّل غزله بالحكم أو ما أبدع من الرسائل الشعرية، كما قرّب الشعر من عوام الناس فأصبح الغزل حديث الأسواق وجعله في متناول الأيدي لكلّ من يحبّ سماع أحاديث الفتيات وحاول الباحث أن يصور سمات غزل بشار الأسلوبية اعتمادا على انجازه الشعرى وما كتب حوله راجيا المولى الكريم تسهيل صعوبات البحث.

كلمات المفاتيح: الغزل، الأسلوب، بشار بن برد، الصور الفنية

المقدمة:

تحتل المرأة والتغزل بها على مرّ الفترات التاريخية مكانة متميزة في وجدان الشعراء العرب، ولا نجد شاعراً في تاريخ الأدب العربي إلا وللمرأة حصّة كبيرة في شعره، ونرى حبّ المرأة والتغني بجمالها وشخصيتها قد استحوذ على قلوب الشعراء وألبابهم وكثير منهم أطلقوا العنان لأقلامهم لترسم صوراً بديعةً حيناً، ومغرقة في العناء والوحشة حيناً آخر. لم يكن بشار بن برد خارجاً من هذا الاطار، لذا نستطيع أن نقول بصراحة أنّه لايخلو ديوانه الشعري من التغزل بالمرأة، بغضّ النظر عن نوعيه الحسي والعفيف. و اننا لاننكر أن الغزل الحسي هو الطابع السائد في غزلياته، غير أنه إذا أباح استخدام اللغة الجسدية الجريئة التي يقتحم أبواب الطوطم الجنسي والاجتماعي، فإنه لم يكن يبيحُ جسد المرأة، بل لا يمكن الحصول على جملة واحدة أو موقف واحد ولو كان عابراً يدل على أنه شاعر إباحيٌّ. بل على العكس من ذلك إن بشارا يدافع عن المرأة وحقوقها في غيرة مبالغة، وإذا كان شعره يدخل في

باب الأدب الجنسيّ فليس كل ما هو جنسيّ إباحيّاً. إلّا أنّ ذلك لا يعني أنّه لا يوجد عنده الغزل العفيف الذي يرتفع عن أدران الحس والجسد، لأنّه ليس هناك مانع من أن يجمع شاعر مثل بشار بين نوعين من الغزل الحسي والعفيف السامي.

الأسلوب:

الأسلوب في اللغة الطريقُ وعنق الأسد والسَّطْرُ من النّخيل والوجهُ والمذهب والفن(الخفاجي، 1991: 250). والأسلوب الأدبي يعرفه ابنُ خلدون في حديث طويل بأنَّه «المنوال الّذي ينسج فيه التّراكيب أو القالب الّذي يفرغ فيه»(ابن خلدون، د ت:570). فهو يراه في الصّورة الأدبّية الممتازة الّتي يحتذيها الأدباء والشعراء وينسجون في أدبهم وشعر هم علي منوالها. ويعرفه بعض المحدثين بأنّه «طريقة اختيار الألفاظ والمعاني للتّعبير بها عن المعاني قصد الإقناع والتّأثير وهو طريقة التفكير والتصوير والتاثير»(الشايب،د ت:53) وله غرضان: نقل الحائق أو المعاني إلَي ذهن السّامع أو القارئ ونقل شعور الكاتب أو المتكلم إلي نفسيهما للتاثير، ويبدو أنَّه منهج الكاتب أو الشّاعر في صوغ أدبه وشعره وأداء افكاره ومعانيه والطَّريقة التي يسير عليها في اختيار كلماته وتراكيبه وما يؤثر في لغة تعبيره وتصويره مِنْ سهولة أو غرابة ومِنْ عَذُوبة أو جزالة ومن وُضوح أو خفاء وطبع أو صنعة وألوان الصنعة في شعره وأدبه من تشبيه واستعارة وكناية وطباق ومقابلة وتعليل ومبالغة وتورية وتدبيج وعكس ومشاكلة وطرق الأداء التي يسير عليها في صياغته من تقديم أو تأخير وذكر أو حذف وفصل أو وصل وايجاز واطناب إلي غير ذلك من اوصاف الاسلوب. ومقياس جودة الأسلوب هو القدرة علي نقل ذلك والتعبير عنه بدقّة وقوة تاثير ويمتاز الأسلوب بما فيه من عاطفة وما يشيع في نظمه من خَيَال وسِحر وعَذُوبَة موسيقَي وحريّة في الأداء والتصوير وبشدة تأثير في النّفوس وأثره في العاطفة والوجدان(الخفاجي، 1991: 251).

الغزل:

الغزل لغة واصطلاحاً: قد جاء في لسان العرب: «الغزل هو حديث الفِتيان والفَتيات أو اللهو مع النّساء»(ابن منظور، مادة غزل ص 3252) ويقول ابن رشيق في العمدة «أما الغزل فهو الف النّساء والتخلق بما يوافقهن»(القيرواني، 1972: 2 / 117) أو الغزل «اللهو مع النّساء والمغازلة هي محادثة النّساء ومراودتهن والتغزل هو تكلف الغزل»(ميشال وبديع يعقوب، 1978:مادة الغزل)و في الاصطلاح: غرضٌ من أغراض الشّعر الغنايي والشعر الغزلي مادة حيّة من موادّ الغناء وقريب إلي الوجدان والإحساس وموضوعه الحبّ والهيام والوجد والشّاعر يقوم بذكر المرأة ووصف محاسنها الخلقية ومفاتنها الجمالية، يتمحور الغزل علي المرأة والحبّ والجمال من نحوٍ وعلي الشّاعر المحبّ من نحو آخر. والغزل ينساب من حميم الفؤاد وخلجات روح الشّاعر عفوياً لأَنَّ الحبَّ لغة عالمية وميل فطري في كلَّ بيئة ويُعدُّ مرآةً صافية لاغبار عليها طوال الدهر وهو وليد عاطفة الحبّ وتصوير لنفسية قائله. حان الآن أن نتطرق إلى أنواع الغزل عند بشار بن برد ونبدأ بغزله الماجن.

الغزل الماجن:

حين ننظر إلى غزل بشار الماجن ودعوته إلى التمتع بالحياة نتذكر لهوه ومجالس أنسه لكننا نلمح في مبالغته في ذكر مغامراته مع النساء وذكر أسمائهنّ شيئا من التشفي بمجتمعه وكان استهتاره بالغزل وسيلة من وسائل الانتقام على ما عاناه من ازدراء وأذى فكان غزله الماجن تنفيساً عن كبت الغرائز من ناحية وانتقاماً من مجتمعه من ناحية ثانية وبهذا يظهر لنا أنّ استهتار بشار بالغزل وفخره بقواه الجنسية هو محاولة منه لتعويض نقصه واظهار جبروته وقدرته في الرّدّ على محتقريه ومنتقصيه ولهذا وصف نفسه على لسان إحدى ضحاياه بقوله:

أقسم بالله ما نجوتُ بها إذهب فأنت المساورُ الظفرُ

(ابن برد،171/1996:3)

أول صور الغزل الماجن عنده، ذكر مغامراته وما يدور بينه وبين صاحباته من خلاعة في الأفعال والأقوال ملمحاً إلى العورات مرة ومصرحا بها مرة أخرى ومن ذلك قصيدة وصف فيها سقوط فتاة صغيرة في فخّه وكأنّه يضع أمام الشباب الطريقة التي توضّح خطوات التغرير بالفتيات فقال بعد أن تنصل من لوم اللوّام:

حسبي وحسب التي كلّفت بها مني ومنها الحديث والنظر

(المصدر نفسه،257/2)

في البداية أظهر الإكتفاء بالحديث والنظر على طريقة شعراء الغزل العفيف لكنه بعد ذلك جعل الحديث مقدمة للقبلة التي تنتهي بحلّ الإزار فقال:

أو قبلةٌ في خلال ذاك ولا بأس إذا لم تُحلل الأُزُرُ

أو لمس ما تحت مرطها بيدي والباب قد حال دونه السُتُرُ

والساق برّاقة خلاخِلُها والصوت عالٍ فقد علا البُهُرُ

(المصدر نفسه،2/ 257و258)

وبعد أن فاقت من نشوتها ندمت على ما حصل ودهشت على قدرته على الايقاع بها فأجرى على لسانها الإشادة به وبقدرته الجنسية:

واسترخت الكفّ للغزال وقالـ ت أُلهُ عني والدمع منحدرُ

إذهب فما أنت كالذي ذكروا أنت وربِّي معارك أشرُ

أهوى إلى مِعضَدي فَرضّضَهُ ذو قوّةٍ ما يطاق مقتدرُ
حتى اقتهرني وإخوتي غيّبُ ويلي عليهم لو أنّهم حضرو
كيف بأمي إذا رأت شفتي وكيف إن شاع منك ذا اخبرُ
(المصدر نفسه،2/ 258)

فالمرأة والخمر عنده صنوان لا تكتمل متعته إلّا بمزجهما حيث سُئل يوماً «أيّ متاع الدنيا آثر عندك؟ فقال: طعام مزٌ وشراب مرٌ ونبت عشرين بكر»(الأصبهاني، د ت:612) وقد ذكر بشار ذكر الخمر في مغامراته واستفاد من هذا التصوير وقد أشار إلى مبيته مع إحدى حبائبه بقوله:

فبتنا كأنّا لو تُراق زجاجة من الماء فيما بيننا لم تسرّب

(الديوان، 356/1)

الغزل العفيف:

وإلى الجانب الآخر من الغزل نجد بشارا أيضاً ولكن في صورة مغايرة للصورة السابقة، نجده عفيفا طاهراً، يشكو الوجد والغرام ويظهر الألم، ألم الفراق والهجر ويكرّر معاني الشعراء العذريين فيصف محبوبته بالعفّة والطهر والجمال الذي يضارع الشمس والقمر دون ذكر الغرائز أو ما يخدش إحساس الحياء حتى نشك في أنّ لبشار غزلاً مثل هذا، فما الذي حدا ببشار البذيء الكلام الداعر إلى نظم الغزل العفيف، ولماذا يدّعي السهد والحرقة والمعاناة؟

فأحييتُ ليلي قاعداً أنتحي الهوى لدى راقد عن ذاك أو متراقدِ

وما أنا إن نام الرقيقُ ولم أنم بأول منكوب بفقد المساعد
(المصدر نفسه، 136/2)

كأنّها لا ترى جسماً تَخَوّنه بينُ الحبيبِ ولم تشعر باسهاد
(المصدر نفسه، 44/2)

وبما راض بشار نفسه على نظم الغزل الرقيق ليتسنّى له الحصول على رغباته وليتكسب الشهرة في هذا الميدان من الشعر المقبول الذي يدلّ على عفة قائله وليسمح الصورة المشهورة عنه في غزله الماجن. وقد يكون اعجابه بأشعار العذريين وراء اصراره على نظم هذا اللون من الغزل وكأنّ بشاراً أراد أن يثبت للناس أنّه لايقلّ عنهم مقدرة وابداعاً.

ولا يستبعد الناظر في سيرة بشار أن يكون لعفة غزله سبب مباشر وهو اشادة انتباه النساء عليه، لأنّه بسبب قبح وجهه وما له من تكوين جسديّ، يشعر بنوع من الاحتقار نفسيا فحاول جاهدا ردم تلك الحفرة النفسية وتعويضها بالغزل الرقيق والمشاعر الرزينة فلجأ إلى اظهار العفة ليثير عواطفها ويجعلها تلتفت إليه فشكا معاناته لبعده عنها وافتنّ في ذلك على نهج الشعراء العذريين ما انتهى إلى اشادة بعض النساء بقوة شاعريته، فقال إحداهنّ له بعد ذمّ شيبه« ومن لك بأن يحسن شيبك في العين كما يحسن قولك في السمع»(الأصبهاني، د ت:612) كما «أكثر نساء البصرة وفتيانها من رواية شعره... وكما أكثرن من الاختلاف إليه»(طه، د ت:194).

رغم هذا التفسير، إنّ الشك لا يزال قائما في أسباب ميل بشار إلى الغزل العفيف. لذلك لا نستطيع رفض فرضية أن يكون بشار قد أحبّ حبّا صادقا وأخلص في حبّه، بينما بعض النقاد يرونه «ليس بالشاعر المخلص ولا الصادق حين يمدح ولا حين يتغزل»(المصدر نفسه، 201) كما «لا يمثل الحبّ الصادق القويّ حقّاً»(المصدر نفسه، 207). مهما يكن من شيء فإنّ بشارا كان مشغوفا بعبدة وفال فيها شعرا كثيرا والتزم في حبّه لها على سبيل الشعراء العذريين فهو مستعدّ لكي يعزف عن كلّ امرأة أخرى من أجل حبّه لها:

فإنْ شئت أحرمتُ وصل النسا ء وإنْ شئت لم أطعم الباردا

(الديوان،215/2)

و قد فعل ذلك فضلاً، لقد حرّم على نفسه الوقوع في شراك امرأة أخرى لأنّها ملكت عليه قلبه:

أحرمتُ ريحانَ بستانٍ وناضره حتى أشُمَّك يا ريحانة البلدِ
جمعتِ نفسي وقد كانت مفرّقة بين النساء وما أبقين من جَلَدِ

(المصدر نفسه،207/2)

إنَّ غزل فيها خالٍ من الألفاظ الصريحة والمعاني الخبيثة وظلّ مخلصا لها بعد زواجها، ينظم فيها القصائد الجميلة على الرغم من أنّه يستطيع أن يتحول إلى غيرها. بدأ حبّه لها من سماع حديثها ووصف النساء لها، فقال لها:

الله يعلم أنّي منذ حدّثني عنك النساء طويل الليل بالسهد

(المصدر نفسه،207/2)

و أصمّ أذنيه عن نهي العذال ولومهم فقال:

يُزهّدني في حبّ عبدة معشرٌ قلوبُهم فيها مخالفة قلبي
فقلتُ دعوا قلبي وما اختار وارتضى فبالقلبِ لا بالعينِ يبصر ذو اللبِّ

(المصدر نفسه،353/1)

و أصبحت منه بموضع الروح من الجسد وأصبح مستعدّاً لفدائها بكلّ شيء يمتلكه:

هيَ الروح من نفسي وللعين قرّة فداء لها نفسي وعيني وحاجبي

(المصدر نفسه،155/1)

وظلّ يؤكد لها حبّه ولم يترك بشار شيئاً من عوارض العشق إلا وذكره في حديثه عن حبّه لعبدة ولم يترك معنى من معاني الغزل العذري إلّا وأتى عليه وأتبعهم في قضية رؤية نفسه شهيدا إذا أوصله وجده بها إلى حتفه وموته فقال:

أو متُّ من حبِّي لها فأنا القتيلُ به الشهيد

(المصدر نفسه،155/1)

لقد أجاد بشار في هذا الفنّ اجادة كبيرة وحلّق في بعض قصائده إلى دنيا العشاق العذريين بمعانيه الدقيقة وأسلوبه الجميل. ولربّما يكون غزله العفيف استجابة لتطلع نفسه إلى الصفاء ؛ لو خالصه المجتمع حسن التصرف والمواجهة وربّما يكون تفريغا لشحنة عاطفية لم يستطع تفريغها خارج الشعر. وقد يكون انقسام غزله ناتجا عن اختلاف المخاطبين، فقسم منه موجّه إلى الإماء والجواري فكان فيه مبتذل ماجنا والقسم الآخر خاطب به المرأة الحرّة فكان فيه عفيفا طاهرا.

الغزل التقليدي:

إذا كان في غزله ما هو متصنّع فهو الذي افتتح به قصائده وأكثر به حتى شغل معظم القصيدة في بعض الأحيان وأدخله في معظم أغراضه المديح والهجاء والفخر والرثاء. مع أنّ هذا الغزل سنّة متبعة عند الشعراء العرب لأنّهم اصطنعوا «مقدمات ذات أغراض متباينة»(الفاخوري،61:1377) فإنّ بشارا منحه طابعه الخاصّ. وفي هذا الغزل أخذ بشار طابع عمر بن أبي ربيعة فأدار الحوار بين حبيبته ورفيقاتها لينقل فيها اعتراضها بحبّه إلى سامعيه:

ونُبئتُها قالت جهاراً لأختها ألا إنّ نفسي عند من روحُه عندي

(الديوان،69/2)

وجعل بشار الغزل من دواعي فخره فأدلّ بقدرته على نظم الغزل الذي تشغف به النساء وتحرص على سماعه لذلك يسرعن إلى مجالسته:

قالت لنسوتها على عجل أنّى لنا بمصدِّع القلب
لَسماعُه إن كان يُسمعنا أشهى إلى قلبي عذب
فأجبنها:إنَّ الفتى غَزِل وأحبُّ من يمشي على التُربِ
لا تعجلينا أن نواعده فيكونَ مجلسُنا على خصبِ
و ننالَ منه غيرَ واحدةٍ إنّ السَماعَ لأهونُ الخُطَبِ

(المصدر نفسه، 168/1-167)

ونرى التصنع واضحا في بعض غزله التقليدي، جعلته الرغبة في الابداع أن يميل إلى ذلك حتى يقول أشياء لا يقولها المحبّ، مهما بلغ به اليأس مثل قوله:

من حبِّها أتمنّى أن يلاقيني من نحوِ بلدتِها ناعٍ فينعاها
كيما أقول فراقٌ لا لقاء له وتضمر النّفسُ يأساً ثمّ تنساها
و لو تموت لَراعتني وقلت لها يا بؤس للموت ليت الدهر أبقاها

(المصدر نفسه، 555/2)

فهل من محبّ يدعو على محبوبته بالموت؟! وهكذا يظهر لنا أنّ بشاراً تفنّن في أنواع الغزل، خاطب به الروح أحيانا وخاطب الغريزة حينا آخر وبين هذا وذاك نظم الغزل التقليدي امتاعا لنفسه وسامعيه. وقد أبدع في غزله كلّه وحافظ على المتانة والرصانة وتابع سابقيه في طرائق الغزل وموضوعاته متناسقا مع نفسيته فجعل نفسه القطب ورحى الغزل تدور النساء حوله على الطريقة العمرية كما اكتفى بوصف المرأة وصفا خارجيا دون التطرق إلى نوازعها ونفسها. وحان الوقت لكي نتطرق إلى مظاهر الأسلوبية في غزل بشار شارحين أثرها الفنيّ على المشاعر والأحاسيس.

المظاهر الأسلوبية في غزله:

لشعر بشار بن برد... بشكل عام وفي الغزل بشكل خاص سمات وخصائص فنية عديدة اتّسم بها وأضفى عليها طابعا فريدا في نهجه وفي موضوعه حتى قال الأصمعي في تفضيل بشار على مروان: «إنّه سلك طريقا لم يُسلَك وأحسن فيه وتفرّد به» وهذا ما جعلنا نستخرج بعض تلك الخصائص الفريدة ما يمكن أن يطلق عليها أسلوب غزل بشار:

1-التوسع في الاشتقاق واستعمال ألفاظ لم يستعملها شاعر قبله.

يهتم بشار بشعره كثيرا وتسهر له عينُه ويتعب فيه فكره، فشعره هو فنّه الذي يعيش به ولابدّ أن يكون جميلا ليحقّق له غايته فكان يتغني بشعره ويسعى إلى تجويده وملائمته للمواقف التي نظم فيها ليخرج بأفضل صورة ممكنة فأعمل عقله فيه ليبدع المعاني ويحسّن الأسلوب وهو نفسه يقرّ بهذا المبدأ إنّي لم أقبل كلّ ما تورده قريحتي... فنظرت إلى مغارس الفطن... ولطائف التشبيهات فسرت إليها بفكر جيّد وغريزة قويّة فأحكمت سبرها وانتقيت حرّها وكشفت عن حقائقها.

ومن هنا اضطر إلى استخدام ألفاظ للمرة الأولى لم يستعملها شاعر آخر قبله وإلى التوسع في اشتقاق مفردات ليست لها تلك الاشتقاقات وذلك لحرصه على التدقيق في شعره وتثقيفه معنى وأسلوبا ولفظا ليكون أقرب إلى المعنى الذي يتوخّاه مثل «غَزَلى»:

على الغَزَلى مني السلام فربّما لهوتُ بها في ظلّ مرؤومةٍ زُهرِ

(الديوان، 359/2)

وقد طعن الأخفش عليه في هذا القول قائلا: «لم يُسمَع من الغَزَل فَعَلَى»(الأصبهاني،د ت،619)وقد تصرف بشار في صياغة بعض الألفاظ كما تصرف في الجموع وجمع على غير قياس ولا نعرف إن كان بشار قد سمع هذه التصريفات أو إنّه اضطر إلى ذلك لإقامة الوزن الشعريّ مثل قوله:

وجيدٌ يُشبهُ الدُّرَّ كجيدِ الريمِ سُلهوبُ

(المصدر نفسه، 156/1)

لم ترد لفظة «سُلهوب» في مشتقات «سلهب» ولم طذكره أهل اللغة بهذا الميزان والموجود هو «السهلب» للطويل من الناس والخيل. ومثل ذلك:

و شقّ جلباب الدُجا الفُجورُ (المصدر نفسه، 272/2) فلم يسمع جمع «الفجر» على «الفُجور» وقد جمعه على غير قياس. إنّ اللغة تثبت بالسماع لا القياس ولكن بشاراً لم يبالِ بالسماع ورأى نفسه فوق اللغة يستخدمها كيف شاء وأجاز لنفسه جواز اشتقاق الألفاظ بصيغة الاشتقاق التي اشتق بها العرب من كلّ مادة عربية أصيلةعلى حسب القواعد المستقرّة في كلام العرب فأراح نفسه من عناء البحث عن الألفاظ المناسبة لأغراضه فمال إلى الخروج عن نمطية اللغة العربية وبادر إلى اشتقاقات خارجة عن اللغة قد يعود تفسيرها إلى «عاهة العمى» والتعويض عن نقصه الجسديّ والاجتماعي. وقد يريد بشار بهذا أن يسجل حضوره في اللغة العربية وأن يقول بصوت الشعر إنّه فوق اللغة والألفاظ تأتيه من بين يديه وخلفه طوعا دونما حرج.

2-الصورة الفنيّة:

تكتسب الصورة الفنيّة عند بشار أهمية خاصة بسبب عماه لأنّ هذه العاهة تلوّن الصور البصرية منها أم التي تقع عليها الحواس الأخرى بلون خاص، استعان بشار بالحواسّ الأخرى ليعطي غزله شيئا من الاقناع ويسدّ الفراغ الحاصل من عاهته فينتقل من وصف المرئي إلى وصف المسموع أو المشموم أو الملموس فهو لا يصبر على الوصف البصري الذي لايعرفه.ولكي نعرف كيف تعامل بشار مع الحواسّ الأخرى وكيف استخدمها نذكر تلك الصور على سبيل المثال لا الحصر.

1-2-حاسّة السمع: يعتمد العميان على سمعهم اعتمادا كبيرا وتنمو حاسة السمع عندهم ويتدربون لالتقاط أخفّ الأصوات والتمييز بينها ويكتسبون معرفتهم من خلالها ويتذوقونه عن طريقها. لذلك كثر حديث بشار عن الصوت مثل:

ساقطت منطقا إليَّ رخيماً فسَبَتني به وقد كنت أسبي

(المصدر نفسه، 227/1)

أو يقول:

لها منطق فاخرٌ فاتنٌ كحُلي العرائس يُستَلمَحُ

(المصدر نفسه، 466/1)

أو يقول:

لقد عشقت أذني كلاماً سَمعتُه رخيماً وقلبي للمليحة أعشق
وكيف تناسي من كأنّ حديثه بأذني وإن غُيّبتُ قرطٌ معلّق

(المصدر نفسه، 455/2)

وساعدت حدّة السمع بشارا على التقاط الأصوات الرقيقة وتشبيهها تشبيها طريفا حاز اعجاب معاصريه ومن جاء بعدهم وبهذا قهر الظلام وفاق به المبصرين.

2-2-حاسّة الشمّ: عني بشار بوصف المشموم وصفا لطيفا وخاصة رائحة المحبوبة التي يقارنها مع الطيب. إنّه بحكم عماه لايقدر أن يرى محبوبته لكنه يشعر بوجودها برائحتها الطيبة فهي تسكره بعبق رائحتها حتى يقول:

يا أطيب الناس أرداناً وملتزماً مُنِّي عليَّ بيومٍ منك واحتسبي

(المصدر نفسه، 223/1)

و يشبهها بزجاجة المسك لايزيدها عتابه إلّا ليونة كما لايزيد هزّ قارورة العطر إلّا نشر رائحتها الزكية:

كقارورة العطّار أو زاد نعتها تلين إذا عاتبتها وتطيب

وهي خلقت من عنبر بما عليها من العَرف:

كأنّها صنعت لمن نالها من عنبرٍ بالمسك معجونِ

(المصدر نفسه، 528/2)

3-2-حاسّة اللمس: لا نقع في شعر بشار على كثير من وصف الملموس مع أنّ حاسّة اللمس عند الأعمى له دور جليل في التعرف على الأشياء من حوله. لكننا نعثر في شعره الغزلي على اللمحات الجيدة في وصف الملموس، مثل قوله:

ودواء عيني قد علمت وداؤها ريّا البنانِ كدُمية المحراب

(المصدر نفسه، 168/1)

أو ما قاله في جارية سوداء:

وغادةٍ سوداء برّاقةٍ كالماء في طيب وفي لين

(المصدر نفسه، 528/2)

فهو لا يستطيع أن يصفها وصفا بصريّا لكنّه لم يرفع الراية البيضاء ولم يعلن الاستسلام بل عوّض عن ذلك باستخدام صفات وتصاوير انتجه اللمس.

أمامة قد وُصِفتِ لنا بحُسنٍ وإنّا لا نراك فالمسينا

(المصدر نفسه، 532/2)

4-2-حاسّة الذوق: أضفى بشار على شعره الغزلي من خلال وصف المذوق طابعا آخر فقد أكثر من ذكر الرضاب والريق والخمر وما يصدر عن التذوق إلّا أنّ تجديد الذوق عند بشار وتفوقه عن الآخرين وأسلوبية الذوق عنده، يظهر من تشبيه الحديث بالخمر أو دمجِ الوصف الصوتي في الوصف الذوقي وهذا ما يسّمى في الأدب المعاصر بـ«تراسل الحواسّ» فهو أول من قام بهذا الفنّ:

كأنّ بِرِيقِها عسلاً جنياً وطعمَ الزنجبيل وريحَ راح

(المصدر نفسه، 470/1)

أو يقول:

من فتاةٍ صُبّ الجمال عليها في حديثٍ كلذة النشوان

(المصدر نفسه، 539/2)

3-التشبيه والتشخيص:

إنّ التشبيه يعتمد اعتمادا كبيرا على حاسّة البصر إذ «القصد والغاية منه هو تقرير وتوضيح حال المشبه»(شميسا، د ت، 71) لذلك على الشاعر والكاتب أن يلتمس وجه شبه حسيّ. فالتشبيه يحتاج إلى عين لاقطة ترصد التفاصيل الدقيقة وتناسقها في صورة متكاملة تؤدي الأثر المطلوب في نفس المتلقي فالتشبيه «يُبيّن رؤية الشاعر للعالم ويرسم مدى تخيله»(المصدر نفسه،98). فإذا كان شاعر ما أعمى، فقد أغلق عليه باب التجربة الحسية ما يدفعه إلى نقص في عمله الابداعي. ولد بشار أعمى ولم يرَ بصيص نور قطُّ وهذا هو سرّ قلّة التشبيهات في شعره عامة وغزله خاصّة إلّا ما اعتمد فيه على مخزونات ذاكرته عن القدماء ما جعل غزله يتّسم في تشبيهاته بالتكرارية فيها. فنلاحظ هنا تكرار التشبيهات فهو يكثر تشبيه الحديث بالرياض المكسوة بالزهور وبالوشي وشي البرود تارة أخرى. كما يشبه محبوبته مرارا بالشمس على طريقة القدماء.

ولها مضحك كغرّ الأقاصي وحديث كالوشي وشي البرود
يُساقطن للزير الموكل بالصبا حديثاً كوشي البرد يغرين في الورد

(الديوان، 69/2)

هذا وبشار رغم فقدان بصره، يرى أنّه في حرب ضروس يجب أن يحسمها لنفسه في النهاية حتى يخرج منا مظفرا منتصرا فخاض في فنون الشعر وأبى أن يتخلّى للمبصرين عن ميدان التشبيه لكنّه تعامل معه خوفَ الوقوع في متاهاته، بشكل يختلف عن تعامل المبصرين فمال إلى بناء «التشبيه المقلوب» وإلى اسقاط المشاعر الانسانية على الجماد والنبات ووصل به الابداع إلى أنسنة الأشياء واعطاءها عواطف بشرية وهذا من أعلى مقامات التصوير مثل ما قاله في تصوير الهمّ والنوم:

وكأنّ الهمّ شخصٌ ماثلٌ كلّما أبصره النوم نفر

(المصدر نفسه،390/2)

فهذا ما يعرف اليوم بالتشخيص (personification) وبشار أسبق الشعراء العربية إليه. يقول في قطعة أخرى:

عدمتك عاجلاً يا قلبُ قلباً أ تجعلُ من هويت عليك ربّا
بأيّ مشورة وبأيّ رأي تملّكها ولا تسقيك عذبا
تحنّ صبابة في كلّ يوم إلى «حبّي»وقد كربتْك كربا

(المصدر نفسه،112/1)

أو يقول مشبها الشمس وجه المحبوبة:

حوراء جاءت من الفردوس مقبلةً فالشمسُ طلعتُها والمسك ريّاها

(المصدر نفسه، 556/2)

وبهذا أخذت الصورة بالسموّ مبتعدةً عن النزعة الحسيّة ووصلت على يدي بشار إلى مستويات عالية من التخيّل الافتراضيّ. وهذه الخصوصية الأسلوبية في رسم الصورة عند بشار أضفت على شعره طابعاً متميّزاً يغلب فيه التصور الذاتي الذي قد يخالف الموضوعية في بعض الأحيان ومن هنا أيضاً كان الخصب في تصويره.

4- الموسيقى الشعرية:

إنّ العميان يتعاملون مع الطبيعة والواقع بسمعهم أكثر من الحواسّ الأخرى فالسمع لهم بمثابة العين وعن طريقها يفهمون الأشياء ويتعرفون عليها. ومن ثمّ أراد بشار الأعمى أن يحاكي المرئي بكلّ ما لديه من الأدوات وليس يمتلك إلّا اللفظ فاختاره لتصوير الواقع فأحسن اختياره. لم نكد ندخل ديوان بشار حتى يثير انتباهنا كثرة ما يكشف عن الموسيقى والايقاع والنغم وليس هذا ناتجا عن شيء إلّا عن ذاته وواقع عصره فإنّه بطبعه ميال إلى اللهو ومجالس الطرب كما أنّ الموسيقى «انتشرت في أيامه وهي من المظاهر الحضارية التي افتتن بها الناس فرققت النفوس وهذبت الأذواق فلجأ الشعراء إلى الأوزان الرشيقة التي تناسب الغناء وتوافقه مع انتقاء الألفاظ ومجانستها»(سالم محمد،227،2002). ومن ثمّ استفاد بشار من الحالة الموجودة لتقريب غزله من الغناء حتى اتّصف غزله بالغنائية (التلحين للموسيقى). وقد وظّف بشار آليات كثيرة لتحقيق هذه الخاصية فقد استخدم «التكرار» وأكثر منها ما يدلّ على غنائية غزله وايقاعيته:

ألا لا لا أرى مثلي ومثل الشوق في قلبي
وما أذنبتُ من ذنبٍ سوى حبّي فما ذنبي

ونوم العينِ ممنوع وماء العينِ في سكب

(الديوان،215/1)

وعلامة منكم مبنية حسبِي بها من حبّكم حسبِي

(المصدر نفسه،165/1)

واستخدم الجناس والطباق في غزله لأنّه رآه مجملاً للتعبير مفيداً للمعنى مثل قوله:

أتُظهرُ رهبةً وتُسرُّ رغباً لقَد عَذّبتنِي رغباً ورهبا

(المصدر نفسه)

فجمع الجناس الناقص والطباق بين (رغبا ورهبا) وطابق بين (تظهر وتسرّ).كما هو ينوع في المفردات ويصوّغها صيغات لاتتمّ عن التعقيد كأنّه يريد من تكرار صيغ تلك الألفاظ تصوير أشياء مثل هذا البيت الذي نحسّ فيه صوت اراقة الخمر وصبّها:

إذا أصبحتَ صبَّحَك التصابي وأطرابٌ تُصَبّ عليك صبّا

(المصدر نفسه،113/1)

وكذلك عندما يخاطب محبوبته «طيبة» أدار على اسمها بيتا كاملا جانس فيه بينها وبين الطيب وكأنّه يريد من تكرار الكلمة أن يعبق بيته برائحة الطيب:

ألا يا طَيْبَ قد طبْتِ وما طَيّبك الطيبُ

(المصدر نفسه،155/1)

كما تعتمد الموسيقى الداخلية عند بشار على حركات الايقاع المتماثلة داخل البيت مثل حركات المدّ في الألف أو الواو أو اليآء مثل قوله:

أيُّها الساقيانِ صبّا شرابِي واسقيانِي من رِيق بيضاء رود
إنّ دائِي الضما وإنّ دوائِي شربة من رُضاب ثَغرٍ برود
ولها مضحك كغرّ الأقاحِي وحديثٌ كالوشي وشي البرود
نزلت في السواد من حبّة الـ قلب ونالت زيادة المستزيد
ج

(المصدر نفسه،6/2)

كما يستخدم بشار التقطيع الصوتي الذي يعتمد على العطف في آخر الأبيات لاحداث موسيقاه قائلاً:

والبين قد أَفِدت ركائبه والقوم من طرب ومن صَبّ

(المصدر نفسه،165/1)

وقالت: لاتزال عليَّ عينٌ أراقبُ قيماً وأخاف كلبا

(المصدر نفسه،113/1)

هذا بالنسبة للموسيقى الداخلية أما الموسيقى الخارجية فنظرة عابرة إلى مقدار البحور التي استعملها بشار كقالب للتعبير عمّا يختلج في صدره والتنفيس عنه، ندرك سريعا أنّ بحور البسيط والطويل والكامل والخفيف، هي أكثرها استعمالا حسب ترتيب النسبة المئوية «38،33،52،36»في المائة وهذا يدلّ على أنّها أطوع للتعبير عن الحبّ وتباريحه لما لها من تفاعيل طويلة تناسب بثّ شكوى الحبّ وبيان حالته. وإلى جانب البحور التامّة استفاد بشار من قابلية المجزوء من البحور ما يلائم مجالس اللهو والطرب التي شاعت في أيامه شيوعا وهي الخاصية التي تتيح المغنِّي قدرة تلحينها وتغنيها. وبذلك كلّه استطاع بشار أن يرنّم كلّ لفظ بل كلّ حرف ويطلق للموسيقى العنان كي تعمر غزلَه وتجعله ناغماً مجنحاً وهذا ميزة أسلوبية عند بشار إذ يكشف عن «فهم بعيد دقيق لخفايا النغم الموسيقِي الكامنة في كلّ حرف»(الفاخوري،384،1377) والذي سبّب له ارهاف سمعه وحدّته الصادرة عن عاهة العمى.

5- تقريب لغة الغزل من لغة العامة:

استطاع بشار أن يقرّب لغته الشعرية لما أوتي من ذكاء حادّ ومخيلة واسعة من قلوب الناس لقد أجاد استخدام لغة الناس دون الطعن في الفصاحة وهذه ميزة لا تتوفر لكثير من الشعراء فهذا أصمعي يقرّ في تفضيله على مروان بأنّه «يصلح للجدّ والهزل»(الأصبهاني،د ت،576) فغزله غزل الشعب وأواسط الناس وقد تمرّد على خصوصية اللغة وحكرها على الخاصّة ؛ لا غرو لأنّه كما قال الشاعر المصري محمد إبراهيم أبو سنة «الشاعر المتمرد»(صحيفة الرأي،20 رمضان،1424 هـ ق) وبذلك حاول تقريب الغزل خاصة والشعر عامة من أذهان الناس وليمهل الناس على أن ينشدوا أشعاره الغزلية في السرّ والعلن وقد أثمرت محاولته فهذا نجم الدين بن النطاح أحد القدماء يقول: «عهدي بالبصرة وليس فيها غَزِل ولا غَزِلةٌ إلّا يروي من شعر بشار ولا نائحة ولا مغنيّة إلّا تتكسب به»(الأصبهاني، د ت،576). وفي سبيل تحقيق هذا الهدف أفاد بشار من آليات عديدة منها استخدام التراث الشعبي لقد استعمل تعابير وكلمات شعبية تجعل الغزل أوقع في نفوسهم وأسهل على ألسنتهم مثل «بيضة الديك» في قوله:

قد زُرتِنا مرةً في الدهر واحدةً عودِي ولا تجعليها بيضة الديك

(الديوان،461/2)

أو ما قيل عن «كمّون» إنّه ينبت من غير سقاية ويكتفي بالمواعيد فأعاد بشار استخدام هذه الصورة في مثل قوله:

ليس المحبُّ ككمّونٍ بمزرعةٍ إن فاته الماء أغنته المواعيدُ

(المصدر نفسه،590/1)

أو كقوله في «رجوع العير حين أراد أن يحصل على القرن فضاع أذنيه» مستخدما إيّاه في عذاب المحبّ من قبل المعشوق:

طالبتُها دَينِي فراغت به وعلّقت قلبِي مع الدَينِ
فصرتُ كالعير غدا طالباً قرناً فلم يرجع بأذنينِ

(المصدر نفسه،528/2)

وكذلك استخدم بشار ألفاظاً لم تكن قبله من لغة الشعر بقدر ما كانت رائجة في أواسط العامة فانتقاها ورقّاها من قائمة العامة إلى قصر الخاصة مثل استخدام أيام الأسبوع حيث لم يكن توظيفها مألوفاً في الشعر إلّا أنّه أفاد من ايحائيتها وما يشعر المخاطب والمتلقِي من واقعية الكلام فأجاد اختياره مثل:

أذكرتُ نفسِي عشيّة الأحد من زائرٍ صادنِي ولم يَصَدِ

(المصدر نفسه،126/2)

أسقمتْ ليلة الثلاثاء قلبي وتصدّت في السبتِ لي شقائي

وغداة الخميس قد موّتتني ثم راحت في الحلّة الخضراء

(المصدر نفسه،1/46-47)

استطاع بشار أن يحدث طريقة جديدة في الشعر العربي ألا وهي طريقة الرسائل الشعرية فهي أعلى وسيلة تقرّب الشعر من النثر والعامية وتجعله أشدّ تعبيرا عن عواطف الناس.

من المفتون بشار بن برد إلى شيبان كهلكم ومرد
بأنّ فتاتكم سلبت فؤادِي فنصفٌ عندها والنصفُ عندِي

(المصدر نفسه،2/232)

ولهذا كما قال الأستاذ طه حسين: «كان يتخير إذا تغزّل أيسر الألفاظ والأساليب وأدناها شيوعا في النساء وفتيات الهوى كأنّه يريد أن يفهمه النساء والفتيات وأن يتأثرن به»(حسين، د ت،204).وبذلك تمكن من اقتراب شعره من نفوس الجماهير حتى تغلّب عليه روح الشعبيّة.

6- الجنسانية الشبقية:

كان بشار محبّا للمرأة متهالكا عليها ولم يكد يسمع صوتا مليحا مخمليا حتى امتلأ شبقا فـ«كان شديد الولع بالنساء مسرفا في التشبيب مفتتّاً فيه فنونا لم يُسبَق إليها...كان شعره كلّه اغراء بالفجور وحثّا على الفسوق»(المصدر نفسه،193). من هنا يأتي ألفاظ غزله مفرطة في الجنسية لا تكاد ترتفع عن نطاق الجنس فهي تعابير ملأى بالوصف المادي الجنسي، مفحشة كلّ الفحش بحيث يؤسف عليها:

يا حُسنها إذ تقول مازحة ونحن فوق السرير نعتنج
لقد حرجنا وهي معانقتي تلثمني والصباحُ منبلج

(الديوان،1/435)

إنّ الجنس هو الأول والآخر عند بشار ومن ثمّ نلاحظ أنّ ألفاظه كلّها مادية جنسية صرفة فعلى سبيل المثال نورد بعض الألفاظ كالإفكل (المصدر نفسه،1/160) ريّا الروادف (المصدر نفسه،1/487) كعاب (المصدر نفسه، 1/544) وغيرها من الكلمات المثيرة لغريزة الجنس والمحرضة على سلوك مثل هذه المسالك القبيحة.

7- التذييل بالحكم:

حرص بشار غالبا على تذييل أشعاره الغزلية بالحكمة وإن لا يناسب الحكمة مع الغزل وربّما يكون ذلك ناتجا عن ثقافته الزاخرة وكمال العقل، إنّه كان من كبار المتكلمين في أيامه، إليك بعض هذه الحكم:

غلبتك أم محمد بدلالها والملك يمهد للأعزّ الغالب

(المصدر نفسه،1/114)

أو يقول:

عِلَلُ النساء إذا اعتللنَ كثيرة وسماحُهُنَّ من العجيبِ العاجب

(المصدر نفسه،1/116)

8- الاعتماد على الثقافة الاسلامية في اخراج تصاويره وتعابيره:

أضفى بشار على غزله ألوانا من الاقتباسات القرآنية وصورا من الثقافة الاسلامية ذلك لكي يحيط معشوقته هالة من القداسة ويقرّبها من النمط العالي من الحبّ فهي إذا ظهرت بين الناس جلبت انتباههم وحملتهم على الاعجاب بها حتى أطلقوا الصلوات لحسنها وجمالها:

لو خرجت للناس في عيدهم صلّى لها الأمردُ والشائبُ

(المصدر نفسه،180/1)

يا كاهن المصر لنا حاجّة فانظر لنا: هل سكنِي آيبُ

(المصدر نفسه،179/1)

فهي تسبب له الراحة والسكون إنّها بمثابة سَكن يسكن إليه المرء وهذا مقتبس من الآية القرآنية «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها»(سورة الروم /21).

النتيجة:

من خلال ما قدمناه عبر الصفحات السابقة تبلورت خاصة غزل بشار وما عليه من خصوصية أسلوبية من التشبيه والتشخيص والتوسع في الاشتقاق والموسيقى الشعرية داخلية وخارجية والجنسانية الشبقية والتذييل بالحكم وأخيرا الاعتماد على الثقافة الاسلامية في اخراج تصاويره وتعابيره، الخصوصية التي تجعل لبشار قصب السبق في هذا المضمار فإنّه بحقّ كان مواكبا لحركة عصره لا بل كان متقدما له يسير في المقدمة يشارك في صياغة الحياة الجديدة ويقف على رأس المحدثين فإنّه رغم عماه استطاع أن يأتي بما لم يأته الآخرون، فاختار الغزل ولمع فيه حتى أصبح حديث الناس واعتمد فيه على التراث الشعري والالتزام به متخطيا الشكل التقليدي بالافادة من عدّة آليات وظّفها خير توظيف ما أكد له حضوره الفعال في سجل تأريخ الشعر العربي حتى اشتهر بـ«أب المحدثين» و«أهمّ البلغاء المكفوفين» و«امام الشعراء المولدين» و«رأس الشعراء البديعيين».

المصادر

القرآن الكريم

ابن خلدون، مقدمة، الطبعة الثانية، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، د ت

ابن برد، بشار، الديوان، تحقيق حسين حموي، الطبعة 1،دار الجيل،بيروت،1996

ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، تحقيق: عبدالله علي الكبير والآخرون، طبعة جديدة، دار المعارف

الأصبهاني، أبو الفرج، الأغاني(ملحق في ديوان بشار بن برد، تحقيق حسين حموي)

الخفاجي، محمد عبدالمنعم، ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان، دار الجيل، بيروت1991

سالم محمد، محمود، بشاربن برد، آخر القدماء وأولّ المتقدمين، الطبعة الأولى، دار سعدالدين،2002

الشايب، أحمد، الاسلوب، دراسة تحليلية لأصول الاساليب الادبية، الطبعة الخامسة، مكتبة النهضة المصرية

شميسا، سيروس، بيان، چاپ نهم، انتشارات فردوسى، تهران، د ت

طه، حسين، حديث الأربعاء، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، دارالمعارف، مصر

الفاخوري،حنا، تأريخ الأدب العربي،نشر توس، ايران،1377

القيرواني، ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، دارالجيل، بيروت، 1972

ميشال، عاصي وبديع يعقوب، اميل، المعجم المفصل، دارالعلم للملايين، بيروت، 1978